من آيات الله

فى الليل والنهار

قال تعالى فى سورة الجاثية: ﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥].

هذه الآية الكريمة تأخذ بك أيها العاقل إلى نظرة تنظر بها إلى ما وراء الحياة وصورها المختلفة، فى الإنسان والحيوان. نظرة فى هذه الحركة الدائمة بين الليل والنهار حيث يختاف أحدهما عن الآخر كما يقول تعالى فى سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ [الفرقان: ٦٢].

واختلاف الليل والنهار ظاهرتان قد يخلق جدتهما فى نفوس البشر التكرار. ولكن أيَّةُ عجيبة تطالع الحس البشرى، وهو يواجه الليل أول مرة أو يواجه النهار؟

إن القلب الشاعر المتفتح يرى هذه العجيبة دائماً، وينتفض لها دائماً، ويرى يد الله التى تدبر الكون كله كلما رأى الليل والنهار.

وتنمو معارف البشر، ويتسع علمهم عن بعض الظواهر الكونية، ويعرفون أن الليل والنهار ظاهرتان تنشئان عن دورة الأرض حول محورها أمام الشمس مرة فى كل أربع وعشرين ساعة.

ولكن العجيبة لا تنقص شيئاً بهذه المعرفة، فإن دورة الأرض هذه عجيبة أخرى، دورة هذا الجرم حول نفسه بهذه السرعة المنتظمة وهو عائم فى الهواء، سابح فى الفضاء، غير مستند إلى شئ إلا إلى القدرة التى تمسك به وتديره كما شاءت بهذا النظام الذى لا يتخلف، وبهذا القدر الذى يسمع للأحياء والأشياء أن

ويتوسع البشر فى علمهم فيدركون أهمية هاتين الظاهرتين على سطح الأرض بالقياس إلى الحياة والأحياء، ويعرفون أن تقسيم الأوقات بين الليل والنهار بهذه النسبة على سطح هذا الكوكب عامل رئيسى لوجود الحياة، وبقاء الأحياء، وأنه لو لم توجد هاتان الظاهرتان بهذا القدر، وعلى هذا النظام، لتغير كل شئ على هذه الأرض، وخاصة تلك الحياة الإنسانية التى تخص المخاطبين من الأحياء.

ومن ثم تزداد هاتان الظاهرتان أهمية فى الحس البشرى، ولا تنقصان وعلى امتداد النظرة فى الليل والنهار، حيث تلبس الأرض ثوباً من ضياء بالنهار، ثم تخلعه لترتدى ثوباً أسود بالليل، على امتداد هذه النظرة ترى السماء وقد نزل منها الغيث الذى ينزع عن الأرض ثوب الموت، ويُلْبِسُهَا ثوب الحياة. قال تعالى: ﴿**وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [الجاثية: ٥].

والرزق قد يكون المقصود به هو الماء النازل من السماء كما فهم منه القدماء ولكن ألا ترى أن رزق السماء أوسع، فهذه الأشعة التى تنزل من السماء ليست أقل أثراً فى إحياء الأرض من الماء، بل إنها لهى التى ينشأ منها الماء بإذن الله، والضوء كذلك له أثر كبير على الأرض والأحياء.

قال تعالى فى سورة ق: ﴿**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا**﴾ [ق: ٩-١١].

وقال تعالى فى سورة البقرة: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٢].

وفى سورة البقرة أيضاً: ﴿**وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ [البقرة: ١٦٤].

ويقول تعالى فى سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وجدير بالعقلاء أن يمتد نظرهم إلى الرياح التى تدفعُ السحب وتسوقُها إلى كل اتجاه، قال ابن كثير فى قوله تعالى: ﴿وتصريف الرياح﴾ أى جنوبا، وشمالاً، ودبوراً، وصبا، برية، وبحرية، ليلية ونهارية، ومنها ما هو للمطر ومنها ما هو للقاح. ومنها ما هو غذاء للأرواح، ومنها ما هو عقيم.

فالرياح تمض منحرفة ومستقيمة، دافئة وباردة، وفق النظام الدقيق المنسوق المقصود فى تصميم هذا الكون العجيب، وحساب كل شئ فيه حساباً دقيقاً لا يترك شيئاً للمصادفة العمياء.

ولتصريف الرياح علاقة بدورة الأرض، وبظاهرتى الليل والنهار، وبالرزق الذى ينزل من السماء.

قال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال تعالى فى سورة الروم: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

وقال تعالى فى سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩].

فهذه الآيات تحوى فى أعماقها نظرات معطية، لكثير من الدلائل، والآيات الدالة على قدرة الله، وإنها لن تتجلى إلاّ لأولى العقول السليمة، والمدركات القوية النافذة، الذين يتفكرون فى اختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من ماء، وتصريف الرياح، ثم ينتهى بهم التفكير إلى ما يجب لله من طاعة، وعبادة، وشكر.

إن اختلاف الليل والنهار، وإنزال الماء من السماء، وتصريف الرياح، آيات موحية للمؤمنين الذين يعقلون، فيتحضرون عظمة الله وجلاله، ويطالعون آيات الخالق فى كل شئ.

واستجلاء روائع حكمته هو شغلهم فى كل لمحه أو نظرة ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. حتى لا تنزع قلوبنا عن موارد ملكوتك، ولا تطيش عقولنا عن النظر فى آيات قدرتك.

إن هذه الآيات تذكرة للخاشعين، ينظرون فيما بين أيديهم وما خلفهم من خلق بديع، فيهديهم تفكيرهم: أن هذا لم يخلق عبثاً، إنما هو كون مدبر، مخطط من لدن عزيز حكيم. فإذا رأوا ذلك ذكروا الله، وأثنوا عليه حق الثناء، وعبدوه حق العبادة.

* * *